الفصل الحادى والعشرون

غريزة المنافسة

يهوى الحيوان والإنسان منافسة الأقران للفوز عليهم، ولا يعتد بما يعانيه من المشاق فى سبيلها. فالدابة تسير وحدها وتجهدها المسافة القصيرة، حتى إذا سايرت غيرها من الدواب تحملت ما لا طاقة لها به من الجهد ونسيت آلامه رغبة فى المباراة. بيد أن أصائل الجياد لا هم لها إلا أن تنطلق كالسهم إلى الرمية سواء أسارت وحدها أم سايرت غيرها، كأنها تجرد من شخصها مناظرا تباريه على سبيل الخيال. قال المعري:

ولما لم يسابقهن شيء من الحيوان سابقهن الظلالا

والطفل كثيرا ما يتفق هو وإخوانه على المباراة عدوا فى ساحة المدرسة، ثم ينسى حدود قدرته على الجرى، ويصف قوته كلها فى مبدأ الشوط، فيقتر نشاطه وتحوز قواه قبل الوصول إلى نهاية السبق. وقد تخونه نفسه فتنزله فى ميدان المباراة قبل موازنة قوته بقوة نظرائه.

وكم ينهض الإنسان وحده لإدراك أمنية تموج فى صدره ويخرج منها بصفقة المغبون، فلا يحزن على فشله حزنه إذا بارى غيره وفشل فى إدراك غرضه.

إن الله تعالى اقتضت مشيئته أن يختلف الناس فى مواهبهم وأقدارهم وأرزاقهم، فترتب على هذا التخالف تفضيل بعضهم على بعض بحكم لا محيص عنه، فكان منهم الأمير والحقير، والعالم والجاهل، والفقير والغني، والمسرف والمقتصد،

ودرجات كثيرة ومتوسطة بين هذه الأطراف، ليكمل بذلك تعمير الكون، ويخدم الناس بعضهم بعضا فى شؤون الاجتماع؛ وبغير ذلك لا يستقيم عدل، ولا تسكن ثورات، ويقع الناس فى المشاكل، لانعدام الوازع الذى يجعل للقوى سلطانا على الضعيف. وقد ورد فى الأثر: " لا تزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا ".

هؤلاء الأحرار ينازعون فى أننا نصف النابغ بصفات الفضل، ونفاخر به ونلقبه بلقب السادة العظماء، ونخلع عليه رداء النبلاء، ونزين صدره بوسام ليست له فى ذاته قيمة، وإنما قيمته فى الدلالة على ما يشير إليه من جد وأمانه وإخلاص. ولو أننا حرمنا النوابغ من ميزة يعرفون بها فهل يستطاع كتمان الفضل؟ أليست للفضائل ألسنه فصيحة ناطقة يفهمها الأذكياء؟ وأية طريقة تتبع لتسجيل هذه الفضائل فى بطون التاريخ والإشادة بذكر أربابها؟

هؤلاء الأحرار غالبوا الفطرة فغلبتهم وأنستهم العمل بما يعتقدون فأصبحت تجدهم مدعوين بالألقاب، لابسين أوشحتها، متنافسين فى التحلى بها، متطلعين إلى المزيد منها، مستنكرين على الزعانف والجبناء والبخلاء أن يقفوا فى مستوى الكبراء والشجعان والأسخياء.

رأى روسو أن المنافسة تمدح وتذم من وجهين: فتمدح لأنها تدفع إلى الجهاد فى ميدان الحياة، وتذم لأنها تحدث الجفاء والقطيعة، وتعكر صفاء الولاء بين الإخوان. والفضائل كلها أوساط بين الأطراف.

طرق روسو باب المباراة من وجهين، مع العلم بأنه فضل التعليم الفردى على التعليم المدرسي.

أولًا : حث " إميل " على مباراة المعلم، على شرط أن يتنزل للعلم إلى درجة تزيد قليلا على الأفق المناسب للتلميذ، ولهذه الزيادة يستنهضه بالمنافسة فى أمر هو داخل فى حدود قدرته. وأنت خبير أن المبتدئ يفرح إذا رأى الفرق بينه وبين معلمه يسيرا، وينقبض يأسا، ويزيد الخيال تعسا، إذا رأى معلمه أسبق منه بمراحل، ومن

نتائج هذا اليأس توقف الذهن عن المحاكاة.

عهدنا الطفل يصمت أحيانا عن الإجابة عن سؤال يلقى عليه؛ ولعل هذه قد نشأ من خوفه التعثر فى أذيال الخطأ، عارفا غزير علم معلمه، معتقدا أنه منزه عن الغلطات كثير الحسنات. فإذا رأى معلمه أخطأ مثله، ثم عاد إلى خطئه فأصلحه، واسترشد برأى العقلاء لرتق الفتق، وتلمس موضع الصواب، أفتظن أن خوفه يعاوده؟ كلا. بل يظهر فيه مقدار كبير من الإقدام والصراحة والاجتهاد.

وثانيا : حث إميل على أن يوازن بين أعمال يومه وأمسه، متوقعا أن يكون عمل اليوم أصلح من عمل الأمس، لأنه اليوم أكبر سنا، وأغزر عقلا، وأشد مرونة وقدرة على تنفيذ الأمور، افرض أن الطفل رسم صورة ثم ألزمه المعلم بالاحتفاظ بها، ووضعها على الجدار، راقما عليها تاريخ البدء والتمام، فإنه بريء من مجموع أمثال هذه الصورة عقدا مرتبا على حسب ترتيب أزمنتها، وبالحرى مرتبا بحسب الجودة التى يجود بها تقادم الزمن والتمرين والتهذيب. ولا يكاد يطلع عليها صانعا حتى يراها متدرجة فى سلم الرقي؛ متقدمة فى طريق البراعة، بعيدة عن مخازى الحقد، وقد سبقه إلى هذا المعنى رجلان: هما أعشى همدان والمعرى قال الأول:

رأيتك أمس خير بنى لؤي ... وأنت اليوم خير منك أمس

وأنت غدا تزيد الخير ضعفا ... كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقال الثاني:-

ينافس يومى فى أمسى تشرفا ... وتحسدا أسحارى على الأصائل

ورأى " كانت " أن أحسن ما تكون المنافسة إذا توجهت عزيمة المتنافسين إلى الغاية دون الوسائل، فالحقد المسترذل إنما يعترض المنافس وهو سار فى طريقه إلى الغاية، فإذا قطع الطريق إليها بعيدا عن الضغينة، ناظرا إلى نور الحقائق الوضاء، فقد حمد الطريق.

وكأنى بعقلاء المؤلفين وأهل الابتداع يمدون أيديهم لمصافحة من ينقدون أعمالهم ويميزون غثها من سمينها. ونحن إذا سوَّغنا للناقد تقرير الحق حبا فى الحق، فلا نسوغ له التشهير بالزلة والطعن فى قائلها، فإنه لا يدرى كم عانى من المتاعب فى التأليف والابتداع.

التنافس لا يمكن أن يكون العنصر الأوحد للسعادة!:

والواقع أن ثمة عنصرًا من الخوف الحقيقى وإن لم يستند إلى مبرر يزيد من هموم رجل الأعمال. واعنى به الخوف مما يترتب على الخراب والإفلاس!. ولست أرتاب فى أن أكثر الناس معاناة من الفقر فى حداثتهم، هم أكثرهم جزعا من أن ينكب أبناؤهم بما نكبوا به من قبل، فهم يسعون دون هوادة إلى الاطمئنان إلى أنهم جمعوا من المال ما يقوم سياجا دون هذه النكبة.. وتشتد مثل هذه المخاوف عادة لدى الجيل الذى يصارع الفقر ويجمع المال، ولكن أثرها يقل بالنسبة للأجيال التالية التى لم يقدر لها أن تعرف الفقر المدقع. وهذه الأجيال الأخيرة لا حساب لها فى حديثنا هذا.

ولو تتبعنا أكثر متاعب الحياة فى العصر الحاضر لوجدنا أن منشأها ليس سوى الإسراف فى المنافسة والجرى وراء النجاح، كما لو كان المورد الرئيسى للسعادة!. ولست أنكر أن الشعور بالنجاح ييسر الاستمتاع بالحياة، وأن المال - إلى حد ما - قمين بأن يضاعف من السعادة، ولكنى اعتقد انه يخلق العكس إذا تجاوز ذلك الحد!.. فالنجاح لا يمكن إلا أن يكون " عنصرا من عناصر السعادة " فحسب، ومن الخطل التضحية فى سبيل إحرازه ببقية العناصر!

ومع أن النجاح ينطوى على عامل التنافس والتزاحم، إلا إننى أرى أن الجديرة بالتقدير هى المهارة التى أوجدت النجاح، لا النجاح ذاته!.. ولقد يتاح لأى عالم أن يجمع ثروة، ولكن التقدير الذى يلقاه لعلمه لن يقل فى شيء إذا هو لم يوفق إلى الثراء.. ولا عجب فى أن نجد قائدا شهيرا يعيش فى فقر، بل إن الفقر فى هذه

الظروف، قد يكون مبعث فخر له، من بعض وجهات النظر.

المال لدى الأمريكيين هو كل شيء!:

لهذه الأسباب نجد أن الصراع والتنافس من أجل المال ينحصر -في أوربا - في أوساط قد لا تكون أكثر الأوساط نفوذا أو أجدرها بالاحترام. أما في أمريكيا فإن الأمر على العكس، لا حساب فيها للخدمات التي يؤديها الفرد، بقدر ما يحسب الحساب ويقام الوزن للمال الذي جمعه هذا الفرد من " خدماته " المذكورة!..

ففي المهارة المكتسبة مثلا، تجد أن غير الأطباء لا يقدرون الطبيب بمدى معرفته للطب، وغير المحامين لا يقدرون المحامي بمدى درايته بالقوانين، وإنما يقدر أصحاب المهن بمدى دخلهم بالقياس إلى مستوى حياتهم!.. ومن جراء ذلك نجد أن صاحب المهنة الحرة في أمريكا يقلد رجال الأعمال ولا يكون لنفسه مجتمعا أو " طبقة " خاصة كما في أوربا.. ومن ثم يشعر الأمريكيون من باكورة أعمارهم بأن المال هو كل شيء، فلا يعبؤون بأي نوع من التربية يخلو من القيمة المادية..

وفي الماضي كان التعليم يعتبر - إلى حد كبير - نوعا من المران على اكتساب القدرة على الاستمتاع بالحياة. وأعني بذلك الاستمتاع بالأمور الرفيعة، المرهفة، التي لا تبين لغير المثقفين من الناس. وكان من مظاهر الوجيه أن يسرف في تذوق الأدب، والصور، والموسيقي. ولكن اليوم لا نرى هذا الرأي، بل إن الغني في أيامنا قد لا يكون مثقفا في كثير من الأحيان. فهو لا يعنى قط بالاطلاع. وهو إذا اقتنى صورا فإنما يقتنيها كأداة للشهرة، ويعتمد في اختيارها على الخبراء. ولا يكون سروره بها وليد الاستمتاع بتأملها، وإنما تنحصر لذته في أن يحول دون استحواذ أحد غيره من الأغنياء عليها!. وكذلك الحال عنده بالنسبة للفنون الأخرى. فتكون النتيجة أنه لا يدري كيف يستغل فراغه.. حتى جمع المال لا يعود يشغل منه وقتا يذكر ، لأنه يسهل عادة كلما ازداد صاحبنا ثراء!.. حتى يصل في أواخر عمره إلى يوم يصيب فيه من المال ما لا يدري كيف ينفقه. وهكذا يتأتى عن نجاحه أن يجد

نفسه فى حيرة! وهو مصير لا مفر منه طالما اعتبرنا النجاح الغرض الأوحد فى الحياة.. ذلك لأن إحراز النجاح كفيل بأن يجعل المرء فى النهاية فريسة للملل والسأم، ما لم يتعلم منذ البداية ما ينبغى أن يفعله بهذا النجاح حين يحرزه!

الإسراف فى التنافس يقضى على المتع الذهنية:

وتجنح " عادة " التنافس – التى فطر عليها بعض الناس – إلى اقتحام آفاق أخرى غير ميدان العمل والتكالب على النجاح.. ولعل " القراءة " خير مثال لذلك، فإن ثمة باعثين يحفزان المرء على قراءة أى كتاب: حافز الاستمتاع بالكتاب، وحافز الزهو الكاذب به!.. وقد أصبح من مستلزمات الحياة للسيدات فى أمريكا أن يقرأن – أو يتظاهرن بقراءة – كتب معينة فى كل شهر.. فمنهن من يقرأنها بأسرها، ومنهن من يقرأن الفصل الأول منها، ومنهن من يقرأن التلخيصات التى توضع لها.. ولكنهن جميعا يحرصن على حيازة تلك الكتب!.. وهن مع ذلك لا يقرأن المؤلفات القديمة المشهورة، وإنما يقتصرن على الكتب الحديثة التى قلما تتوفر لها الميزات التى تجعلها خالدة.. وهذا كله من آثار التنافس الأعمى الذى يشقينا جميعا فى هذا العصر!

والواقع إن مما لاشك فيه أن الدراية بأطايب الأدب متعة " كانت " شائعة بين المتعلمين حتى خمسين عاما مضت – وبلغت أوجها فى " الصالونات الفرنسية " فى القرن الثامن عشر – لكنها أصبحت اليوم قاصرة على نفر قليل من الخاصة والعلماء! وهكذا هجر الناس فى هذا العصر كل المسرات الهادئة، والمسؤول الأول عن ذلك هو شيوع تلك الفلسفة الزائفة للحياة، التى توحى بأن الحياة " مباراة " أو منافسة، لا احترام فيها إلا للغالب الظافر...

وقد تسأل: وما السبب فى شيوع هذه الفلسفة الزائفة؟ والجواب أن المغالاة فى الطهر والتقوى – وفقا للمذهب البيوريتانى – قد أنشأت نوعا من الناس نمت عزائمهم فوق ما ينبغي، **بينما كانت حواسهم تعانى الظمأ والجوع**.. فكانت النتيجة

أن أنتج هؤلاء القوم فلسفة تعوضهم عن حرمانهم بالانكباب على العمل والانغماس فيه وبالتالى التنافس على التفوق والصراع من أجل الغلبة وبلوغ قمة النجاح!.. ولا ينتظر أن يتغير هذا الوضع قبل انقضاء مائة عام أخرى على الأقل، حين يبدأ مجتمع هذه الطبقة فى التناقص والانقراض بسبب زهد هؤلاء المتكالبين على النجاح فى إنجاب الأطفال واكتفاء أكثرهم بطفل واحد أو طفلين، لانشغالهم بأعمالهم وبجنون المنافسة من ناحية، وعدم شعورهم بمتع الحياة العائلية التى ترغبهم فى إنجاب النسل من الناحية الأخرى.. الأمر الذى سوف يقضى عليهم بالهلاك والانقراض، ليخلفهم من بعدهم قوم أكثر مرحا وابتهاجا وتذوقا للنعم البيتية فى ظلال السلام والقناعة وسكينة النفس..

والواقع أن المنافسة إذا اعتبرت أهم ما فى الحياة كانت الحياة كئيبة، ممضة، لا تعدو أن تكون توترا للعضلات، وإرهاقا للعزيمة، فى سبيل تهيئة أساس معقول لحياة جيل أو جيلين على الأكثر. فإذا تجاوزت هذا الهدف أفضت إلى تعب أعصابي، وإلى عدة مظاهر للفرار والتنفيس والانغماس فى الملذات، فى إسراف لا يقل عن العمل إرهاقا، لاسيما وقد غدت الراحة ضربا من المستحيل. ثم ينتهى الأمر إلى تلاشى القوى والعقم. وهكذا نرى أن فلسفة التنافس لا تفسد العمل وحده بسمومها، بل هى تسمم الفراغ أيضا. فإذا بهذا الفراغ القمين بأن يعيد إلى الأعصاب هدوءها يتحول إلى ملل مضجر. وهى حال تميل إلى التفاقم والاستفحال حتى تنتهى بطبيعتها إلى المخدرات، ثم الانهيار. ولا علاج لها إلا بالتزام قدر من المتعة العاقلة، الهادئة، فى حياة مثالية متزنة..

obeikandl.com